فليس خارجًا عن طباع السيف أن يقطع الذراعين والساقين والهادي ، وأن يؤثر بعد ذلك ويغوص في الأرض ، ولكنه مما لا يكاد أن يكون [1] .

ويرى الجرجاني أن الإفراط مذهب عام في المحدثين ، وإن كان موجوداً عند الأوائل ، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ، ولم يتجاوز الوصف حدها – جمع بين القصد والاستيفاء وسلم من النقص والاعتداء ، فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية ، وأدته الحال إلى الإحالة ، وهي نتيجة الإفراط ، وشعبة من الإغراق .

وإذا سمع المحدث قول الأول :

ألا إنَّما غادَرْتِ يا أمَّ مالِكٍ صَدًى أيْنَما تَذْهَبْ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبِ

وقول آخر من المتقدمين :

ولَوْ أنَّ ما أبْقَيْتِ مِنّي مُعَلَّقٌ بِعودِ ثُمامٍ ما تأوَّدَ عودُها

جسر على أن يقول :

أسَرّ إذا نَحِلْتُ وَذابَ جِسْمي لَعَلَّ الرِّيحَ تَسْفي بي إلَيْهِ

وسهُل لأبي الطَّيِّب أن يقول :

ولَوْ قَلَمٌ أُلْقيتُ في شَقِّ رأسِهِ مِنَ السُّقْمِ ما غَيَّرْتُ مِنْ خَطِّ كاتِبِ

وأن يقول :

كَفى بِجِسْمي نُحولا أنَّني رَجُلٌ لَوْلا مُخاطَبَتي إيّاكَ لَمْ تَرَني

فكأن المحدثين وجدوا أمامهم « سبيلا مسلوكًا وطريقًا موطئًا ، فقصدوا

(١) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، ص ٢١٤ .